«الإنجيل في سولينتينام»:

نموذج لفهم نصوص التجسد والميلاد

القس سامح إبراهيم

«الإنجيل في سولينتينام» The Gospel in Solentiname، عملٌ ثوريٌّ قامت به مجموعةٌ ثائرة على القهر والفقر والظلم. أمّا العملُ نفسُه فهو عبارة عن تفسيرات وتعليقات على نصوص الأناجيل الأربعة، كُتب في الأصل بالإسبانية ثم تُرجم للإنجليزية في أربعة مجلدات (سأعتمد في دراستي هنا على ترجمة Donald Walsh الإنجليزية). أمَّا القائمون على العمل فهم مجموعة من القرويين والفلاحين البسطاء في جزر سولينتينام في دولة نيكاراجوا، بأمريكا اللاتينية، تحت قيادة وتوجيه الشاعر والكاهن الكاثوليكي إرنستو كاردينال. كان العمل ثمرةَ تأملاتٍ ولقاءات منتظمة قام بها هؤلاء الفلاحون البسطاء في نهايات السّتينيات وبدايات السبعينيات، أثناء ثورة البلاد على حُكم طاغية نيكاراجوا الشهير أناستسيو سوموزا.

في مقدمة العمل، يروي إرنستو كاردينال ظروف نشأة هذا العمل قائلًا:

في سولينتينام، وهو أرخبيل [= مجموعة جزر] ناءٍ في بحيرة نيكاراجوا سُكانه فلاحون، بدلًا من تقديم عظة من الإنجيل كلَّ يوم أحد، كنا نُقيمُ حوارًا. إنَّ تفسيرات الفلاحين كانت في أحيانٍ كثيرة أكثر عمقًا من تفسيرات العديد من اللاهوتيين، لكنّها بسيطة مثل بساطة الإنجيل نفسه. هذا ليس مفاجئًا فالإنجيل أو «الخبر السار» (للفقراء)، كُتب لهم، وكُتب بواسطة أناسٍ مثلهم (Ernesto Cardinal, *The Gospel in Solentiname*, trans. Donald D. Walsh, vii).

يواصل كاردينال قائلًا إنّه كان يقود المناقشات التي كانت تتم في كنيسة سولينتينام، أو في كوخ مقابل الكنيسة، كان يُستخدم لتناول وجبة الغداء الجماعيّة التي تتم بعد القداس، أو في أحد البيوت. سجّل كاردينال هذه التفسيرات على أشرطة الكاسيت ثم طبعها لاحقًا في هذه المجلدات الأربعة في السبعينيات. في عام 1984 نشر فيليب وسالي شاربر Phillip and Sally Scharper مقتطفاتٍ من هذه المجلدات في كتابٍ بعنوان ***The Gospel in Art by the Peasants of Solentiname*** مصحوبة بصور رسمها فلاحو سولينتينام (انظر/ي الصورتيْن في نهاية المقال). كانت الاجتماعات تبدأ بتوزيع نسخ من نص الإنجيل على من يستطيع القراءة. بعد القراءة، التي يقوم بها عادةً ولدٌ أو بنتٌ بصوت عالٍ تبدأ الحوارات، التعليقات، والتفسيرات آيةً فآيةً، وفي تسجيله للمناقشات عادةً ما يشير كاردينال لاسم صاحب/ صاحبة التعليق. في وصفه لأرخبيل سولينتينام، يقول إنه يتكون من 38 جزيرةً صغيرةً، أكبرها فقط كانت مأهولة بالسكان وعددهم حينها كان حوالي ألفَ نسمة يُكوِّنون 90 أسرةً، وبيوتهم كانت بسيطة جدًّا عبارة عن أكواخ من القش، معظمهم يشتغلون بالزراعة أو الصيد.

ينتمي «الإنجيل في سولينتينام» للاهوتِ التحرير الذي نشأ في أمريكا اللاتينية وساد فيها وساهم في تطويرها تطويرًا كبيرًا. حتى فترة قريبة كان اعتمادُنا في دراسة لاهوت التحرير على كتابات الأب وليم سيدهم اليسوعي، وخاصةً كتابه «لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية: نشأته. تطوره. مضمونه» (دار المشرق، 1993) والكتيب المختصر للدكتور القس صموئيل حبيب «لاهوت التحرر: دراسة وتقييم» (دار الثقافة، 1994). قدمت دار الأكويني للنشر خدمةً عظيمة للقراء العرب حين نشرت في 2016 ترجمةً عربية للكتاب الأهم على الإطلاق في لاهوت التحرير وهو كتاب «لاهوت التحرير: التاريخ والسياسة والخلاص»، الذي كتبه جوستافو جوتييرث، وهو من أبرز مؤسسي لاهوت التحرير، ثم نشرت الدارُ نفسُها في عام 2019 كتاب «مزامير سياسية» لإرنستو كاردينال. أتمنى أن تتبنى دار نشرٍ عربية ترجمة عمل كاردينال المهم هذا «الإنجيل في سولينتينام».

في المجلد الأول، والصفحات 1-100 من «الإنجيل في سولينتينام»، يسجل لنا كاردينال 11 حوارًا حول نصوص التجسد والميلاد المسجلة في إنجيليّ متى ولوقا وعلى رأسها تفسير مقدمة يوحنا (يوحنا 1: 1-18). يُرسم يسوع طوال هذه الحوارات باللقب «المحرر» ويحتفي فقراء سولينتينام بميلاد يسوع فقيرًا من عذراء فقيرة في ظروف تعيسة وقاسية، يروْن أنها لا تختلف كثيرًا عن ظروفهم. تلتف الجماعة كلها حول إرنستو كاردينال، بل بالأحرى حول طفل الميلاد بطريقة تُظهر عُمقًا وإخلاصًا لا مثيل لهما. أُلخص هنا مثلًا من تفسيرهم للبشارة (لوقا 1: 26- 36):

> هذا التفسير كان في كوخ الاجتماع، مقابل الكنيسة، تناولنا الغداء معًا. كان الغداء من الأرز والحبوب وسلحفاة كانت ناتاليا قد طبختها. قرأت جلوريا، وهي أصغر الفتيات سنًّا، نص الإنجيل. بعد ذلك بدأنا نفسر الآيات.
>
> قال عجوزٌ اسمه توماس بينا: إنَّ الملاك يُهنئ مريم لأنها ستُصبح أم المسيا وهو يُهنئُنا نحن أيضًا لأنه يقصد أنَّ المخلص لن يولد وسط الأغنياء بل بيننا نحن الشعب الفقير.
>
> قال فيليكس: إنَّ المسألة هنا هي أن المحرر كان يجب أن يولد بين المقهورين المضطهدين.

قالت أوليفيا: إنه سوف يحرر الفقراء والأغنياء على السواء. سوف نتحرر، نحن الفقراء، من الأغنياء، بينما سوف يتحرر الأغنياء من ثرواتهم وغناهم لأنهم عبيدٌ أكثر منا.

إرنستو كاردينال: إنَّ الاسم «يسوع» عادة ما يُترجم إلى «مُخلِّص» أو «خلاص»، لكن الآن يُمكن أن نترجمه ترجمةً أفضل ليعني «مُحرر/Liberator» أو «تحرير/Liberation». الاسم العبري هو يشوع، والذي يعني «يهوه يحرر» أو «يهوه تحريرٌ».

أضاف آخر: الله دائمًا يُعلن نفسه على أنه محرر الشعب مثلما في حالة موسى والشعب الذي حرره من فرعون. يهوه محرر. الآن في يسوع يعلن أنه محرر ويعلن أن هناك حُكمًا وملكوتًا جديدًا قد تأسس وهو ملكوت الفقراء (*The Gospel in Solentiname*, 13-18).

في الاجتماع التالي فسروا كلام الملاك ليوسف في متى 1: 18-25 وقد طرحوا سؤالًا حول كلام الملاك «يخلص/ يحرر شعبه من خطاياهم» (مت 1: 21) وهو هل كان يسوع محررًا سياسيًّا؟ كانت واحدة من الإجابات هي نعم ولا. لا، ليس محررًا سياسيًّا مثل أي محرر سياسي قد يطمح في الاستيلاء على السُّلطة. ونعم، لأنه كان محررًا سياسيًّا حقيقيًّا يرغب في تحرير الناس من الخطية والظلم. في تفسير هذا النص، يتم التأكيد على معنى اسم «عمانوئيل» ويُترجم تحديدًا ليعني «الله مع الفقراء». كان يسوع نجارًا، واحدًا من الفقراء، فالتحرير يأتي من الفقراء (*The Gospel in Solentiname*, 19-24).

من يقرأ/ تقرأ هذه التفسيرات يلاحظ/ تلاحظ على الفور صبغتها السياسية والاجتماعية. أنا مدينٌ للدكتور ***Brian K. Blount*** الذي فتح عينيَّ على هذا العمل الرائع أثناء قراءتي لكتابه المهم ***Cultural Interpretation*** وقد خصص الفصل الثالث منه لتحليل «الإنجيل في سولينتينام»، مُعتبرًا إياه نموذجًا بارزًا لتأثير الظروف الاجتماعية- السياسية على قراءة نصوص الكتاب المقدس. يُصبح الفقر والقهر الذي يعانيه هؤلاء الفلاحون عدستيْن بهما تُفسر النصوص الكتابية. مثلًا، تُفسر الخطية تفسيرًا اقتصاديًّا على أنها الأنانية، وفسروا المحبة على أنها المشاركة (*Blount, Cultural Interpretation*, 41-54). بالتالي لا يفصل هؤلاء الفلاحون بين ظروف كتابة النص وظروفهم. النص يُجسِّد مآسيهم وهم يرون أنفسهم حاضرين فيه، إنْ جاز التعبير، يرون أنفسهم بوضوح شديد فيه كأنهم ينظرون في مرآة. انظر/ي مثلًا كيف رسموا، بالكلمات كما بالصورة، يسوع المصلوب وهو يرتدي ثيابهم البسيطة (صورة 2) أو كيف صوروا مذبحة أطفال بيت لحم، حيث رسموا بيوت بيت لحم كأكواخ من قش، تُشبه بيوتهم في سولينتينام، وجنود هيرودس يُرسمون وهم يحملون أسلحةً نارية بملابس تُشبه ملابس جنود الديكتاتور سوموزا (صورة 2). أقدّمُ هنا مثلًا آخر يوضح انغماسهم في النص، وتجسد النص والمسيح في ظروفهم، وهو تفسيرهم، مع مقدمة كاردينال كالمعتاد ومشاركته، لأغنية مريم (لوقا 1: 46- 55):

أتينا إلى ترنيمة مريم وقد كانت مُرعبة للقياصرة الروس، وسمّاها موراس [شاعر وسياسي فرنسي] «بذرة ثورة» وهي بمثابة ترنيمة للفقراء، يطيب كثيرًا لفقراء نيكاراجوا أن يتغنوا بها مُغرمين بترديدها. إنها صلاة الفقراء، حتى الذين يؤمنون بالسحر والخرافات يحملونها كتعويذة. قرأتْ شابةٌ صغيرة اسمها إسبيرانزا النص وبدأت النساء في التعليقات.

قالت واحدة: مريم تسمي الله «المخلص»؛ لأنها تعرف أنَّ الابن الذي أُعطِي لها سوف يأتي بالتحرير.

قالت أخرى، وهي شابة متزوجة: لقد امتلأت مريم بالفرح والابتهاج. . . لقد أدركتِ التحرير. نحن

يجب علينا أن نفعل الأمر عينه. التحرير يكون من الخطية، أيّ من الأنانية، من غياب العدالة، من البؤس، من الجهل- من كل شيءٍ قهري.

قالت تيريسيتا [تعليقًا على قول مريم «نظر إلى اتضاع أمَتِه»]: حين اعتبرت مريم نفسها «أمة»، فهي تضع نفسها إلى جوار المقهورين. ولو كانت اليوم بيننا لقالت: أنا من طبقة العُمّال أو أنا من فلاحيّ سولينتينام.

واحدة من البنات قالت: قالت مريم إنها فقيرة ورأت أنَّ الله وضع في اعتباره «فقر أمته»، أيّ أنَّ الله اختارها لأنها فقيرة. لم يختر سيدة أو ملكة، لكنه يُفضِّل الفقراء. إنه يفضلنا نحن الفقراء.

ماريتا ختمت التفسير وقالت [تعليقًا على الآية «أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين»، وقد اعتبرها كثيرون منهم أنها آية تؤكد انحياز وتفضيل الله للفقراء الضعفاء]: إنَّ مريم هنا تتغنى بالمساواة حيث مجتمع بدون طبقيةٍ، الكلُّ متساوٍ (*The Gospel in Solentiname*, 25-32).

نلاحظ مما سبق من أمثلة ثلاثةَ أمورٍ مهمة وحاسمة في قراءة فلاحيّ سولينينام للإنجيل، بل وفي لاهوت التحرير عامة. أولًا، يشترك الكلُّ في تفسير الإنجيل. لا يشترك الكاهن إرنستو كاردينال فقط، لا يتكلم وحده وهم يكتفون بالإصغاء. الكبار والصغار، النساء والرجال يشاركون في عملية التفسير. الجماعة كلها تقرأ وتتفاعل مع النص. جماعة الفقراء أنفسهم يشاركون في عملية التفسير، كما يتوجب عليهم المشاركة في تحرير أنفسهم. ثانيًا، تنطلق تفسيراتهم من الواقع، أعينهم مفتوحة على واقعهم، كما على النص. آذانهم وقلوبهم تتعلق بالنص المقدس والواقع والظروف المحيطة. تُعوزني المساحة هنا لأقدم أمثلةً على قراءتهم الثاقبة للواقع والنص. ثالثًا، تأخذ مسألةُ انحياز الله لصف الفقراء والمقهورين لتحريرهم المركزيةَ في تفسيرهم.

هذه الملاحظات يؤكد أهميتَها كثيرون من المتخصصين في لاهوت التحرير. مثلًا، من يقرأ/ تقرأ الكتاب الأساسي لهذا الفكر اللاهوتي، أقصد كتاب «لاهوت التحرير»، لجوتييرث، أو من يقرأ مقالة «*The Hermeneutics of Liberation*» وهي مقالة بالغة الأهمية لـ **David Tombs**، تقع في الصفحات 310-355 في كتاب ***Approaches to New Testament Study*** سيلاحظ هذه المبادئ الثلاثة حاضرة بوضوح. يذكر **Tombs** أنَّ لاهوت التحرير قد أسقط الجدار الفاصل بين ما هو أكاديمي وما هو شعبي، هذا الفصل مرفوض في لاهوت التحرير. لا يبدأ تفسير النص من أكاديميين متخصصين يعرضون فكرهم على جماعة دون مشاركة من هذه الجماعة. جماعة الإيمان تساهم بخبراتها ورؤاها وبهذا تتحدى اللاهوتيين المتخصصين في طريقة تفسيرهم للكتاب. المتخصصون يوجّهون الجماعة ويُصوِّبون فهمها للنص (**Tombs**, 328, 340). جوتييرث يُصر على مشاركة الفقراء والمطحونين قائلًا: «لا يحتكرُ تفسيرَ الإنجيل أصحابُ السلطة من حكام ورجال دين تابعين لهم كما كان يحدث» (جوتييرث، لاهوت التحرير، 412. ترجمة جان رزق الله والأب جون جبرائيل الدومنيكاني. القاهرة: دار الأكويني، 2016). المبدأ الثاني والثالث، أيّ الانطلاق من الواقع والانحياز للفقراء، عنصران أساسيان في لاهوت التحرير عامة. يقول جوتييرث: «إنَّ إعلان كلمة الله في عُزلة عن الواقع المُعاش سوف يُفقِد كلمة الله وقعها التحريري وبُعدها المليء بالرجاء» (لاهوت التحرير، 410). وقد خصص أجزاء طويلة للتأكيد على العلاقة بين الكنيسة والمجتمع (مثلًا الصفحات 122-141) وهو يصف هذه العلاقة على أنها «العلاقة بين الإيمان والكيان البشري، وبين الإيمان والواقع الاجتماعي، وبين الإيمان والعمل السياسي، أو بعبارة أخرى، العلاقة بين ملكوت الرب وارتقاء العالم» (لاهوت التحرير، 123-124). يؤكد **Tombs** أيضًا الأمر نفسه، فلاهوت التحرير منفتح على الحياة والواقع. يورد توموس رأيَ أحد لاهوتي التحرير، وهو اللاهوتي السلفادوري **Jon Sobrino**، والذي يرى أن كلَّ اللاهوت المسيحي الحديث نشأ في حدود حركة التنوير، لكن

بينما تأثر اللاهوت الأوربي بإمانويل كانت تحت شعار «تحرير العقل من كل سُلطة» وصارع اللاهوت الغربي مع قضية «موت الله»، تأثر اللاهوت اللاتيني بكارل ماركس الذي سعى ليس فقط لتحرير العقل بل للتحرير من بؤس العالم الواقعي وناضل هذا اللاهوت مع قضية «موت الإنسان المقهور» (Tombs, 327-28).

المبدأ الثالث الحاسم الذي نراه واضحًا هو الانحياز للفقراء والضعفاء والمقهورين لتحريرهم وتغيير واقعهم المرير. نرى الدفاع عن الفقراء واضحًا في كتابات لاهوتيّ أمريكا اللاتينية. مثلًا، في كتابه «مزامير سياسية»، وهو مجموعة من القصائد مستوحاة من المزامير وقد ترجمه للعربية الأب جون جبرائيل الدومنيكاني، يقول إرنستو كاردينال في قصيدة مستوحاة من مزمور 9:

أنت تدافعُ عن فقرائها

ولا تنسى عناء مساكينها.

انظرْ إليَّ يا ربّ،

وأنا في معسكر الاعتقال

مزق الأسلاك الشائكة،

انتشلني من أبواب الموت.

يعتبر جوتييرث حدثَ الخروج من مصر حدثًا كاشفًا يُبيّن انحياز الله للمقهورين والعمل على تحريرهم وبالتالي «الله الذي نعرفه في الكتاب المقدس هو إلهٌ محرر» (لاهوت التحرير، 221)، وأنَّ يسوع في حياته وخدمته «أعلن تفضيله الجذري للفقراء والمحرومين والمستضعفين» (لاهوت التحرير، 365). يرى فلاحو سولينتينام ميلاد يسوع فقيرًا دليلًا على انحياز الله لصفهم ولقضيتهم. يسمون يسوع «المحرر»، كما أوضحنا، وهو اللقب الكريستولوجي الأهم في لاهوت التحرير، كما يوضح توموس (Tombs, 335)، يؤكد Jon Sobrino في كتابه Jesus the Liberator أن يسوع يُرى ويُحب كالمحرر. المسيح يُرى فوق كلِّ شيء كالمحرر، وهو أمر يؤكده العهد الجديد نفسه حيث يسوع الناصري أُرسل «لأبشر المساكين لأنادي للمأسورين بالإطلاق» (لو 4: 18) (Sobrino, 12).

يسوع كمحرر للإنسان، كانت حياته كلها في خطر، بدأت بمحاولة هيرودس قتله بحسب إنجيل متى 2: 12-23، الذي كان تفسير إرنستو كاردينال وفلاحي سولينتينام له كالتالي:

قبل قداس هذا الأحد بقليل كانت هناك دورية للحرس الوطني تفتش بيوتنا. الأحكام العرفية فُرضت في البلاد، مع تعليق الحريات الشخصية. بعض الناس بدا عليهم الخوف قليلًا، لكن الأطفال كانوا يندفعون بفرح في أرجاء الكنيسة مُحدثين ضوضاء كثيرة جعلتنا في بعض الأحيان نسمع تفسيرات هذا النص بصعوبةً. قرأت ميريام النص. كان أخي فيرناندو، وهو كاهن يسوعي، من بين الحضور.

قال فيرناندو: . . . أعتقد أيضًا أننا لوقت طويل كنا نُسيء قراءة الإنجيل، نفسره فقط بمعنًى روحيٍّ خالص، مستبعدين كل ظروفه الاجتماعية والسياسية. . . وبالتالي نحن نُجرِّدُ الإنجيل من واقعيته. حين جاءت دورية الجيش اليوم، أدركت أيّة أحوال واقعية جدًّا وقاسية يقدمها الإنجيل لنا هنا: القمع. يمكن لنا أن نتخيل ماذا يعني هذا: الرحيل ليلًا، الاختفاء بخوفٍ شديد، ترك كل شيء خلفهم، حتمية الوصول للحدود لأنهم كانوا مُلاحَقين.

قال ولدٌ: ما يحدث الآن في بلادنا يُشبه تمامًا ما حدث مع الطفل يسوع. معدلات موت الأطفال مُرتفعة، هناك كثيرون يموتون أو يعانون سوء التغذية.

كاردينال: هناك الكثير من عائلات المزارعين الذين دُفعوا لترك منازلهم في أجزاء كثيرة من نيكاراجوا، هاربين من البؤس والجوع، أو لأنهم طُردوا من أراضيهم، أو لأن الحرس الوطني قتل قادة المزارعين وحرق بيوتهم الريفية، واغتصب نساءهم وسجن عائلات كاملة وعذبها. إن مناظر العائلات الهاربة، الأمهات اللاتي تحملن أطفالهن على أذرعهن، تُشبه تمامًا هرب عائلة يسوع إلى مصر.

لوريانو: أتذكر ما حدث في تشيلي حيث قتلوا آلاف الناس لأن الحرية كانت تُولد هناك. كثيرٌ من الناس أُخذوا في طائرات لأعلى وأُلقوا في البحر، لكنهم لم يستطيعوا أن يسحقوا الحرية، تمامًا مثلما لم يستطع هيرودس أن يسحق يسوع.

(صورة 1: قتل أطفال بيت لحم على يد هيرودس، مأخوذة من The Gospel in Art by the Peasants of Solentiname. Edited by Phillip and Sally Scharper)

إلفيس: إنَّ ميلاد يسوع هو ميلاد الثورة.

فيليب: رغم إن يسوع كان فقيرًا جدًّا، لكنه كان قويًّا لدرجة أنه جعلهم يرتعبون.

كاردينال: لقد وُلد يسوع في الناصرة، وهي قرية صغيرة لم تُذكر أبدًا في العهد القديم. وقد استخدم أعداؤه لاحقًا الكلمة «ناصري» كسخريةٍ منه ومن وضاعةِ أصله.

جلوريا: أن تقول «من الناصرة»، كأنْ تقول «من سولينتينام».

جوسيه: لقبه «الناصري» يعني أنه رجل الشعب. (*The Gospel in Solentiname*, 70-86).

إنَّ ما نقلتُه من مقتطفات من هذا العمل الرائع «الإنجيل في سولينتينام»، يتحدانا على أكثر من مستوى. على اللاهوتيين والأكاديميين أن ينقلوا اللاهوت للشعب، وأنْ يُشركوا الناس في التفكير اللاهوتي. كان هؤلاء الناس في سولينتينام مُخلصين للكتاب المقدس والمسيح، ومُدركين لما يحدث حولهم في البلاد. كانت قصة تجسد المسيح وميلاده داعمةً لهم في ظروفهم القاسية. في النهاية، قد نتفق أو نختلف معهم في فهمهم للكتاب المقدس، وهو أمرٌ طبيعي أن يؤخذ من كلامهم وأن يُرد عليهم. لكن مهما يكن من أمر، هذه التفسيرات تتحدانا كي نُخلص في تفسيرنا للكتاب المقدس، نبحث فيه عن يسوع، لكي نلتقي به، ونبحث عن فهم واقعنا، علّنا، بمعونته، نقدرُ على تغييره.

(صورة 2: صلب يسوع، مأخوذة من كتاب The Gospel in Art by the Peasants of Solentiname)